خطبة صلاة الجمعة 18/ 10/ 2024 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(العاقبة للحق)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: 7-8].

أخرج الإمام مسلم عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**"، قَالَ: "**فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ**».

وأخرج الإمام أحمد عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ**».

وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ، يَقُولُ: "قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ".

عنوان الخطبة: **(العاقبة للحق)**

أيها الإخوة:

الحديث عن الحق في القرآن الكريم حديث طويل، والحديث عن الصراع بين الحق والباطل فيه متكرر، والحديث عن العاقبة للحق جليٌّ واضح.

قال تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: 49] ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81].

فالصراع بين الحق والباطل بالبيان حيناً وبالسنان حيناً آخر سُنةٌ ماضية في هذه الحياة الدنيا، لم تُرفع بموت الرسل ولا بموت أعدائهم، ولا تتوقف باستشهاد رجال الحق ولا بزهوق أهل الباطل، بل هي سنةٌ ماضية باقية قال تعالى عن المشركين والكفرة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: 217].

فمنذ نزول آدم عليه السلام إلى هذه الأرض؛ بدأت عداوة الشيطان الرجيم له، وكان من بعد آدم ذريته من أهل الحق من الأنبياء والصلحاء والفضلاء والمؤمنين، وكان للشيطان ملؤه وأتباعه من الأشقياء والظلمة والكافرين، وكان التدافع بين الحق والباطل وبين الخير والشر وبين الظلم والعدل، وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أخرج سعيد بن منصور في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ، لاَ يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ، وَلاَ عَدْلُ عَادِلٍ**».

فأتباع الرحمن وهم أهل الحق يعملون، وأتباع الشيطان وهم أهل الباطل يعملون، وكما أن التدافع بين الحق والباطل سنة ماضية؛ فزوال الباطل وثبات الحق وعلوه سنة ماضية أيضاً.

يخبرنا القرآن نتيجة التدافع بين الحق والباطل، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17].

وفي قصة سيدنا موسى وفرعون الكثير الكثير، فكم قتل الباطل من أبناء الحق وكم زبد ورعد وسحر وانتفخ، فماذا كانت العاقبة؟ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 117-119].

وماذا كانت العاقبة في قصة سيدنا إبراهيم مع النمرود ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

وماذا كانت العاقبة في قصة نوح مع أهل الباطل ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: 11-16].

وماذا كانت العاقبة في قصة شعيب مع الظالمين ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: 94-95].

وقل مثل ذلك في صالح وهود ولوط مع أهل الباطل ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40].

أيها الإخوة:

يتأخر ظهور عاقبة المتقين الحسنة وعاقبة الفاجرين المخزية؛ لأن الله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب ﴿كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179].

يتأخر ظهور عاقبة المتقين الحسنة وعاقبة الفاجرين المخزية؛ لأن الله تعالى يريد أن يصفي صفوف المؤمنين من المنافقين ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: 166-167].

يتأخر ظهور عاقبة المتقين الحسنة وعاقبة الفاجرين المخزية لأن الله تعالى يريد أن يتخذ من المؤمنين شهداء ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 140].

يتأخر ظهور عاقبة المتقين الحسنة وعاقبة الفاجرين المخزية لأن الله تعالى يريد أن يهلك من هلك عن بينة ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 42].

فالباطل وإن علا فإنه سيضمحل، ولكن في الوقت الذي قدره الله، والباطل وإن صال وجال فإنه إلى زوال، في الوقت الذي أراده الله، فللباطل صولة وللحق دولة، وجولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

جاء في تفسير الشعراوي: (ساعة أن يطفوَ الغثاءُ فإياك أن تفهم أن ذلك علو، إنه علو إلى انتهاء، كذلك فورة الباطل، وإذا ما ارتفعت رؤوس الباطل فهذا دليل على أن قطافها قد حان؛ لأن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض).

وقال غيره من المفسرين: (ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً ولكنه بعدُ زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئاً ساكناً، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات؛ ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي والمعدن الصريح، ينفع الناس).

لقي الباطلُ يوماً الحقَ، فقال الباطل: أنا أقوى منك، فقال الحق: أنا أثبت منك.

قال الباطل: أنا أقوى منك. قال الحق: أنا أبقى منك.

قال الباطل: أنا معي الأقوياء والمترفون، قال الحق: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 123].

قال الباطل: أستطيع أن أقتلك الآن. قال الحق ولكن أولادي سيقتلونك ولو بعد حين.

أيها الإخوة:

اليوم، في صراع أهل فلسطين ولبنان مع الصهاينة المغتصبين، تعود سنة التدافع بين الحق والباطل لتظهر، وستعود سنة العاقبة للحق لتظهر بإذن الله.

فينافح أهل فلسطين ولبنان عن الحق، عن أرضهم التي ولدوا بها، ومقدسات المسلمين التي أمروا بالذود عنها، وعن دينهم الذي آمنوا به، يدافعون عن الأطفال والشيوخ والنساء والمستضعفين.

ويدافع الصهاينة عن الباطل عن سرقتهم لأرض غيرهم واغتصابهم لمياههم وثرواتهم، فهم شراذم تجمعت من أطراف العالم، واحتلوا الديار، وعاثوا في الأرض ظلماً وفساداً.

ويعينهم أشباههم من أهل الباطل من ساسة أميركا وأوربا.

ولكن هذا الباطل سيزول ويضمحل ّويسقط؛ لأن العاقبة للحق ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:5-6].

أيها الإخوة:

العاقبة للحق سنة الله في الصراع والتدافع بين الحق والباطل ولكن يتوجب علينا ثلاثة أمور:

– الزموا الحق وأهله، واذكروا أن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل، فكونوا في جانب الله تعالى طاعة لأمره وإقامة لشرعه، ونصرة لدينه، في أنفسكم وفي بيوتكم وفي أسواقكم وفي مجتمعكم.

– أعينوا بما استطعتم من قام مبارزاً الباطل وأهله، منافحاً عن الحق ورايته، فكونوا عوناً لإخوانكم في غزة وفلسطين ولبنان.

– اصبروا واستعدوا إيماناً وتربيةً وقوة ليوم النزال، حتى إذا دعيت للنفير كنت من أهله، وإذا لم تدعَ كتب الله لك نيةَ ذلك.

والحمد لله رب العالمين